العربيّة مدينة ببقائها وخلودها إلى الإسلام غير أن ارتباطها بالتراث أصبح الآن أوثق من ارتباطها بالدّين

بقلم الدكتور عمر الدقاق
وكيل كلية اللغات بجامعة حلب

ورد فى تاريخ ابن عساكر الحديث النبوى التالى للرسول محمدعليه السلام: «ياايهاالناس ان الرب واحد، والاب واحد وليست العربية فى احدكم من اب ولا ام ، وانما هي عربية اللسان ، **فمن تكلم بالعربية فهو عربي** » . وهذا الحديث ينطوى على رأي قيم ونظر سديد فى موضوع التشابك بين اللغة العربية والدين الاسلامى . وهو ينسجم من جهة اخرى مع النظرية الحديثة للقومية التى تجعل **رابطة اللغة فى راس مقومات الامة** . والجدير بالذكر ان هذا الحديث النبوى كان فى الواقع محاولة لتفسير وضع جديد واجهه العرب للمرة الاولى ، وهو اشتراك العرب وغير العرب فى العقيدة الاسلامية الجديدة . وكان ذلك من الرسول ردا على تساؤل الصحابة عن مدى عروبة سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى .

وما من ريب فى ان حال اللغة العربية من هذه الزاوية: زاوية ارتباطها بالاسلام وانتشارها بانتشاره وانحسارها بانحساره ظاهرة فريدة بين اللغات . **فالاسلام فى فجر عهده وضحاه لم يحمل الى معتنقيه من الشعوب لغة القرآن ولسان العرب فحسب بل حمل اليهم فوق ذلك قيما حضارية ومثلا فكرية** تعدت نطاق العقائد والعبادات الى مظاهر العمل والسلوك . وقد نجم عن ذلك كله اخذ وعطاء وتفاعل حي بين ثقافة العرب والثقافات الاخرى التى تعانقت جميعا فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

وهكذا غدت **العربية فى العصور الوسطى اللغة السائدة فى المضمار العلمى والحضارى** ، اذ وسعت معارف العرب وسائر المسلمين واكتسبت بذلك غنى واقتدارا ومضاء .

وان التلاحم الذى حدث قديما بين العربية والاسلام كان ذا فائدة متبادلة لهما كليهما ، مما ادى الى تفاعل خلاق . على ان **اللغة العربية** – فى رايي – **افادت من الاسلام اكثر مما افاد الاسلام من العربية.** ونحن هنا نتجاوز عن الغرم الذى لحق بالعربية نتيجة اعتناق غير العرب للعقيدة الاسلامية مما ادى الى فشو اللحن فيها فى وقت مبكر وانتشاره على نطاق واسع . فهذا الغرم ظاهرة طبيعية فى لغة تنطلق وراء حدود موطنها وهى ضريبة الذيوع والانتشار . ان كون القرآن عربيا والرسول محمد عربيا وان عقيدة الاسلام انبثقت فى ارض العرب وحملها العرب الى الناس كافة .. بالاضافة الى ان العربية كانت لغة الفاتحين تمتد تبعا لازدياد نفوذ المسلمين فى ارجاء الارض .. كل ذلك جعل من **العربية** قديما **لغة عالمية** ومكنها من ان تكون **وعاء لحضارة اسلامية غنية** وشاملة ومتعددة الجوانب ، كما غدت فضلا عن ذلك موضع تقديس المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم. ولهذا اصبحت لغة العرب وآدابها موضع عناية سامية من قبل اولئك المسلمين بحيث غدت مدينة فى قدر كبير من ازدهارها الى جهودهم المباركة . ونجم عن ذلك ايضا انه بالحروف العربية كتبت اللغة التركية وما تزال تكتب الفارسية والملايوية والاوردية ، كما ان تراث العربية ما زال يحظى حتى يومنا هذا بعناية بالغة فى الهند وباكستان واندونيسيا وايران والافغان .

ولو افترضنا جدلا ان القرآن كان قد نزل باللغة الفارسية على رجل من الفرس وحمله الاعاجم الى سائر الامم لما تغيرت النتائج كثيرا فى راينا . لان العقائد والمذاهب والافكار لا تنتشر او تنحسر تبعا لتبنيها لغة دون لغة ، وانبثاق دعاتها فى قوم دون قوم . على حين يبدو جليا انه **لولا ذلك الترابط التاريخى الوثيق بين العربية والاسلام لبقيت لغة الضاد لغة قومية فحسب** ، شانها فى ذلك شان لغات سائر الامم فى عصرها ، ولظلت محصورة داخل نطاق المتكلمين بها ، ولما اتيح لها ان **تتجاوز فلكها الطبيعى الى الآفاق الرحيبة بصورة فذة ليس لها نظير فى تاريخ الانسانية** .

ولابد من القول ان **العربية مدينة ببقائها وخلودها الى الاسلام** ، وبتعبير اخص الى القرآن ، اذ لولاه لكان مصيرها مختلفا ، وربما كانت لهجاتها قد تمايزت وتباعدت او انزوت واندثرت على غرار ما حدث لكثير من اللغات ومنها اللاتينية ، ومنها ايضا اليونانية الحديثة التى غدت مباينة ليونانية هو ميروس الى حد كبير . بل اننى اجنح الى ابعد من ذلك فارى ان **بقاء العربية لغة واحدة حية متماسكة بفضل القرآن هو الذى حافظ على وحدة الامة العربية وعصمها من ان تتفتت الى شعوب تبعا لتفتت العربية الى لغات.** ومثل هذا الامر الذى حدث بالنسبة الى الناطقين باللاتينية مثلا كان بوسعه ان يحدث على مر العصور بصورة اقوى من وجهة نظر علم الاجتماع وعلم السكان ، وذلك لانتشار العرب على رقعة مكانية شاسعة تمتد من المحيط الاطلسى الى الخليج العربى . اذ **ليس كاللغة ما يمسك الكيان القومى** ويعصمه من الذوبان فى لجة الاقوام الاخرى . وهذا ما يفسر لنا كثيرا من محاولات طمس اللغات القومية لدى الشعوب تمهيدا لاذابتها او امتصاصها على غرار ما كان من خطة الاتراك الاتحاديين فى سياسة التتريك الجائرة تجاه العرب ، او ما كان من سلطات الاحتلال الفرنسى فى محاربة العربية فى الجزائر املا فى دمجها بفرنسة ، اذ الامة التى تحافظ على لغتها تمسك بمفتاح شخصيتها .

على ان هذا الحال من التلاحم بين العربية والاسلام لم تعد له هذه النتائج الباهرة التى تحققت فى الماضى . ولابد لنا اليوم من ان نلاحظ التغير الذى طرأ على الاوضاع والافكار والمنازع لدى الشعوب فى هذا العصر .

ولعل من ابرز هذه الظواهر الحديثة ان **العامل الدينى فى تكوين الامم ورسم سياستها قد** تضاءل دوره ، كما سادت نزعة الفصل بين **الدين** والدولة فى الغرب وسرى هذا الاتجاه الى الشرق ، على حين يبدو جليا وبصورة مطردة تعاظم **الشعور** القومى وطغيانه على سائر النزعات من دينية او امميه .

فمع ان العربية ستبقى ابدا وثيقة الاتصال بالاسلام تبعا لان القرآن ـ كتاب المسلمين ـ عربى، فان **علاقة التلازم هذه بين العربية والاسلام لم تعد علاقة لغة بدين بقدر ما اصبحت علاقة لغة بتراث .** وكان من ابرز مظاهر هذه العلاقة **الاسهام الفعال للمسيحيين العرب فى اعلاء شان العربية** لغتهم القومية برغم انهم لا يمتون بسبب الى العقيدة الاسلامية . وما ذلك الا لان الاسلام بحضارته ولغته غدا تراثا اصيلا يشمل العرب كافة على اختلاف عقائدهم .

ان طموحنا الى اعلاء شان العربية ينبغى ان يتركز فى اطار الوطن العربى ، قبل العالم الاسلامى باعتبارها اللغة القومية وجامعة الشمل والعامل الاساسى فى وحدة العرب ، وذلك فى العمل على تضييق الفروق الكبيرة **بين لهجاتها العامية المتباعدة** ، وجعل العربية من جهة اخرى امة متطورة غنية بالمصطلحات العلمية المستحدثة تتسع للتعبير عن المنازع المتجددة فى مختلف وجوه النشاط الذهنى للانسان المعاصر .

وان الازدياد المطرد لشان العربية فى الوطن العربى تبعا لتعاظم المشاعر القومية عند العرب يقابله اليوم نفوذ محدود للغة الضاد فى الدول الاسلامية ، وذلك للاسباب نفسها ايضا ، من استقلال الدين عن الدولة ومن غلبة النزعة القومية وبالتالى سيادة اللغات الوطنية للشعوب الاسلامية . ويبدو مثلا ان **تاثير الفكر الاسلامى فى لغة الاتراك واذهانهم توقف او انحسر الى** حد كبير عما كان عليه من قبل حين وضعت العربية مياسمها على التركية وجعلتها مدينة بالفضل اليها . **والعربية اليوم فى سائر البلاد الاسلامية مقصورة** الى حد كبير على ناحيتين : الاولى انها لغة العبادة فى الصلاة والاذان ونحوهما ، والثانية انها تحظى باهتمام محدود داخل النطاق الاكاديمى فى مضمار البحوث والدراسات ، وهذا ما نلمسه جليا فى الباكستان والهند وايران ..

ان اللغة العربية في الاقطار الاسلامية لا تواجه اللغات القومية فحسب بل تواجه ازدياد نفوذ اللغات الاجنبية الحية في تلك الاقطار ايضا ، كالانجليزية في آسيا والفرنسية في افريقيا . وغالبية المسلمين من غير العرب لا يفقهون شيئا من آيات القرآن اذا تلوها في المصحف ، بله الذين يقرؤونها خلال طقوس الحج وسائر العبادات بالحروف اللاتينية .

ان العلاقة بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية طرا عليهما اليوم تبدل واضح، فلم تعد علاقة تلازم تقتضي بالضرورة ان يكون ازدهار العربية نتيجة حتمية لتعاظم الوازع الديني ، او ان خمول هذه اللغة العربية يستلزم حتما اضمحلال الوازع الديني . وبتعبير آخر ان **العلاقة بين اللغة العربية والاسلام في طابعها الراهن لم تعد علاقة سببية تبلغ حد التفاعل والتأثير المتبادل** . فعلى الرغم من الترابط بين العربية والاسلام تبعا لجذور تاريخية باقية ومتجددة فانهما **يسيران في طريقين متوازيين** قد يلتقيان فيتعانقان او يفترقان فيتباعدان ولكنهما بأية حال **لا يتعارضان** .

ان الظاهرة المميزة للاجيال العربية الحديثة تتجلى في محبتهم المطردة للغة الضاد ، وغيرتهم عليها ، وتفانيهم في خدمتها ، شانهم في ذلك شأن السلف الصالح، مع اختلاف في طبيعة الحافز بين الامس واليوم . فعلى حين كان الدين وخدمته العامل الفعال في الاقبال على العربية غدت النزعة الوطنية والعاطفة القومية في هذا العصر الدافع الرئيسي في سبيل رفع شأن العربية . وهذا ما يفسر ضآلة مساهمة المسلمين من غير العرب في مضمار الدراسات العربية بالنسبة الى ما كان عليه حالهم في سالف العصور وفي مقابل ذلك نلمس ـ منذ فجر النهضة حتى اليوم ـ لدى العرب غير المسلمين وبخاصة في لبنان وسوريا والمهجر احتفالا كبيرا بالعربية وتراثها .

والحقيقة الساطعة التي تثلج القلب ان **العربية في ازدهار مطرد** داخل وطنها وبين اهلها مما يبشر بانطلاقها الى آفاق ابعد لا تحد . **فالهوة بين العامية والفصحى آخذة في الضيق،** وهذا واقع نلمسه لدى مقارنة عامية هذا الجيل في القطر السوري مثلا بعامية الجيل الذي قبله ، بل ان هذا الفارق ليبدو واضحا بين لغة الآباء ولغة الابناء تحت سقف البيت الواحد ، وذلك بفضل انتشار التعليم على نطاق واسع ، وذيوع اجهزة الاعلام كالصحافة والاذاعة والتلفزة وتغلغلها المطرد في اوساط الشعب . يضاف الى ذلك ان تجربة التعريب الرائدة في سوريا خلال نصف قرن مضى من الزمن قد اثبتت نجوعها واتاحت للعربية بفضل فيض المصطلحات العلمية الموضوعة ، وتدريس الطب باللسان العربي ... مزيدا من **الانفتاح على الفكر العالمي** ومنجزات الامم الاخرى . ونحن نلاحظ بثقة واعتزاز **ان لغة الضاد ماضية قدما في كل يوم لتغدو اللغة الرسمية** في كثير من المؤسسات العالمية والهيئات الدولية ، ولتتربع بجدارة الى جانب اللغات القليلة السائدة في ارجاء المعمورة . وان اقرار العربية مؤخرا لغة رسمية في منطقة اليونسكوالدولية يعد نصرا مبينا في سلسة انتصارات هذه اللغة العريقة الخالدة .

غير ان **الطريق ما زال شاقا وطويلا امام العربية** حتى تتبوأ المنزلة الرفيعة التي نطمح اليها بين سائر اللغات الحية المتطورة . وما ذلك الا لان **ضعف اللغة رهن بتخلف اهلها** ، وازدهارها منوط بتقدمهم .

ان المرحلة الحضارية الحاضرة التي تعيشها الامة العربية تقتضي منا ان نفتح عينا على لغتنا القومية وعينا اخرى على اللغات الاجنبية السائدة . اما **مبالغتنا في فضل العربية** ومزاياها الفائقة واشاحة وجوهنا عن مزايا بعض اللغات الاخرى **فنزعة سلبية ضارة** قوامها استعلاء غير واقعي، وقد آن لها ان تنقضي بانقضاء مرحلة تحقيق الذات التي تجاوزها العرب ، لان **مثل هذا الشعور قد يؤدي بفكرنا الى العزلة عن المعطيات الحضارية** لدى سائر الامم . **ان لغتنا على اصالتها وطاقتها الذاتية الخلاقة ما تزال قصيرة الباع متخلفة عن بعض اللغات العالمية في مضمار العلوم والتكنولوجيا** . كما ان **انصرافنا في مقابل ذلك عن اللغة العربية** في هذا المضمار **امتهان لانفسنا** وحكم جائر على لغتنا القومية بالعجز والعقم.

ان غالبية الامم تطمح بداب الى ان تجعل لغتها القومية هي السائدة في وطنها . وهذه الغاية بالنسبة الينا ضرورة حيوية وحتمية ، **لانها تنبع من شعورنا** بشخصيتنا وايماننا بحقيقتنا وادراكنا لاصالتنا وثقتنا بلغتنا . غير ان هذا كله ينبغي الا يحول بيننا وبين **الاتكاء على اللغات الاجنبية** ما دام هذا الاتكاء ضروريا لنا في وصلنا بتطور الانسانية الخلاق . هذه مرحلة قد تطول ، ولكنها لابد ان تبقى في نظرنا مرحلة ، وان نضع نصب اعيننا ضرورة تجاوزها في قابل ايامنا الجادة ، حين تستطيع العربية الوقوف على قدميها ، وتغدو الوعاء الرحيب لجميع المنازع الفكرية والمعطيات الحضارية .